العرب
الجمعة 2021/11/12
السنة 44 العدد 12238

بحث عن توازن جديد في السودان

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

من الصعب التكهّن بما يمكن أن يستقرّ عليه الوضع في السودان حيث يبدو أكثر من واضح أن كفّة العسكر باتت هي الراجحة على الرغم من وجود مجتمع مدني فاعل. استطاع هذا المجتمع الصمود طوال أشهر في مواجهة نظام عمر حسن البشير من أجل إسقاطه والتخلّص من تخلّف الإخوان المسلمين الذين يمثّلهم. سقط النظام بالفعل في الشارع الذي لا يزال مستنفرا. لكنّ الفضل الآخر والحاسم في هذا السقوط كان لكبار الضباط على رأسهم عبدالفتاح البرهان ومحمد حمدان دقلو (حميدتي). هؤلاء "أقنعوا" البشير بطريقتهم الخاصة بأنّ عليه الرحيل وأنّ لا أمل له بأن يتولّوا حماية نظامه الإخونجي على الرغم من أنّه متغلغل في عمق المؤسسة العسكريّة والأجهزة الأمنيّة.

ثمة حاجة إلى توازن جديد بين المدنيين والعسكر، توازن يؤمّن نوعا من الاستقرار يبدو السودان في أشدّ الحاجة إليه. في النهاية، تبيّن مع مرور الوقت أنّ المدنيين لا يستطيعون الحكم من دون العسكر الذين وعدوا مرّة تلو الأخرى بفترة انتقاليّة تجري بعدها انتخابات. من يؤمّن مثل هذا التوازن الجديد الذي يمثل فيه عبدالله حمدوك، رئيس الوزراء الذي أقاله العسكر، الجناح المدني في السلطة... أو هكذا يفترض.

لا بدّ من العودة إلى التاريخ الحديث للسودان من أجل محاولة فهم تلك اللعبة الدائرة بين المدنيين والعسكر. منذ استقلّ السودان في العام 1956، يلجأ المدنيون إلى العسكر في كلّ مرّة يثبت فيها فشلهم في إدارة البلد... ويلجأ العسكر إلى واجهة مدنيّة بين حين وآخر بغية تغطية عجزهم عن ممارسة الحكم وإيجاد حلول للأزمات الاقتصادية والسياسيّة المتلاحقة. هل يمكن للعسكر فرض توازن جديد وأن يظهر البرهان وحميدتي أنّ الوضع سيكون مختلفا وأنّهم سيؤمّنون حماية للسلطة المدنيّة ونوعا من الطمأنينة والاستقرار كي تنصرف إلى معالجة مشاكل البلد التي تبدو في غاية الصعوبة؟

من الضروري التذكير بما هو معروف عن أنّه في العام 1958 سلّم السياسيون السلطة إلى العسكري إبراهيم عبّود بعدما اكتشفوا أنّهم غير قادرين على ممارسة مسؤولياتهم. ما لبث عبود نفسه، وكان برتبة فريق، أن وصل إلى طريق مسدود في العام 1964. كان كافيا نزول المواطنين إلى الشارع وإطلاق شعار "إلى الثكنات يا حشرات" كي ينتهي زمن العسكر وكي يعود المدنيون إلى السلطة التي ما لبث أن تسلّمها انقلابي أرعن عديم الثقافة اسمه جعفر النميري. بقي النميري في الرئاسة حتّى العام 1985 قبل أن يضطر إلى التنازل في ضوء ترهّل بلغه السودان على كل صعيد. لم يكن النميري يعرف ما الذي يريده. بدأ عهده بشعارات عروبيّة بالية، من النوع الذي استخدمه قبله جمال عبدالناصر، وانتهى بالبحث عن طريقة يسترضي بها الإخوان المسلمين الذين نخروا المجتمع مستفيدين من حال التسيّب التي سادت في السنوات الأخيرة من حكم النميري ومن الدور التخريبي الذي لعبه حسن الترابي وقتذاك.

بعد فترة قصيرة من الحكم المدني، نفّذ ضباط إسلاميون، كان يرعاهم زعيم الإخوان المسلمين حسن الترابي في منتصف العام 1989 انقلابا عسكريا. كان ذلك من منطلق شعار أنّ "الإسلام هو الحلّ". خرج البشير على طاعة الترابي ومارس حكما عسكريا مباشرا أنهته في العام 2019 ثورة شعبيّة يرفض كبار الضباط الاعتراف بها وبحقها في تشكيل سلطة تكون بالفعل السلطة المسؤولة عن إدارة شؤون السودان وإعادة بناء اقتصاده وإيجاد حلول لمشاكل في غاية التعقيد من نوع مشكلة شرق السودان. يتبيّن كلّ يوم أن عبدالله حمدوك ليس الشخص المؤهّل لإدارة البلد واتخاذ قرارات كبيرة. يحتاج في كلّ وقت إلى دعم العسكر وغطاء منهم.

اتخذ السودان منذ إيداع عمر البشير وأركان نظامه السجن خطوات عدة تميّزت بالجرأة، خصوصا في مجال الانفتاح على العالم ودول المنطقة والتخلص من العقوبات التي فرضت على البلد. لكنّ كلّ هذه الخطوات تبدو ناقصة في غياب تفاهم في العمق بين المدنيين والعسكر. تبيّن أن الوصول إلى مثل هذا التفاهم شبه مستحيل من دون إجراء حوار في العمق يضع الأسس لمرحلة مختلفة تؤدي إلى توازن جديد يقتنع فيه كلّ طرف بحاجته إلى الآخر. العسكر يحتاجون إلى المدنيين... والمدنيون يحتاجون إلى العسكر. لا غنى لأي من الطرفين عن الآخر.

إذا لم يمتلك العسكر مثل هذه القناعة، التي تفضي إلى وقف الابتزاز للمدنيين والقبول بنوع من توزيع للأدوار في ما بين الجانبين العسكري والمدني، سيبقى السودان في دوامته الأزليّة. لكن ما لم يعد في الإمكان تجاهله أنّ هناك حاجة إلى اقتناع للمدنيين بأن الثورة في الشارع شيء وممارسة مسؤوليات السلطة في بلد معقّد مثل السودان شيء آخر.

تهدّد الدوامة السودانيّة بالمزيد من الأزمات والانقسامات الداخلية التي لن يعثر لها على حلّ مهما بذل المجتمع الدولي من جهود من أجل مساعدة السودان وتمكينه من استغلال ثرواته الضخمة. لكنّ هناك مسؤولية كبيرة مشتركة يتقاسمها العسكر والمدنيون في الوقت ذاته. هذه المسؤولية مبنيّة على قناعة محدّدة. في أساس هذه القناعة أنّ لا غنى لأي من الطرفين عن الآخر وأنّ أي حكم مدني يحتاج إلى حماية العسكر للقرارات الكبيرة التي سيتوجب عليه اتخاذها. لن يقبل العسكر بحماية هذه القرارات من دون ثمن. يريدون أن يكونوا شركاء في السلطة من جهة وأن يكونوا شركاء في القرارات الكبيرة من جهة أخرى.

مثل هذه القرارات الكبيرة التي اتخذها العسكر، قبل أن يتخذها المدنيون، سمحت برفع العقوبات الدولية عن السودان وسمحت بتمرير مساعدات إليه. كيف الوصول إلى التوازن الجديد. هذا هو السؤال المحوري في السودان. قد يساعد في ذلك اكتشاف كلّ طرف من الطرفين أن لديه حاجة ماسة إلى الآخر. الحاجة أمّ الاختراع. هل يخترع السودانيون معادلة جديدة أم يبقون في دوامة من الطرف الأقوى المدنيون... أو العسكر؟

الدوامة السودانية تهدد بالمزيد من الأزمات والانقسامات الداخلية التي لن يعثر لها على حل مهما بذل المجتمع الدولي من جهود من أجل مساعدة السودان وتمكينه من استغلال ثرواته الضخمة

حميدتي داعم للبرهان أم قائد احتياط

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

بعد نحو أسبوعين على الانقلاب الذي قاده قائد الجيش السوداني الفريق أول عبدالفتاح البرهان، تحدث نائبه في مجلس السيادة المنحل الفريق أول محمد حمدان دقلو، المعروف بحميدتي، لأول مرة مؤيدا ومثمنا ما اتخذ من إجراءات ضد القوى المدنية، واعتبرها ضرورية ومن قبيل تصحيح مسار الثورة.

فُسر تعليق حميدتي على أنه تأكيد لوحدة المؤسسة العسكرية بكافة فروعها ووقوفها خلف قرارات البرهان إلى أقصى مدى، في محاولة لنفي ما تردد حول وجود انقسامات داخلها، وأن الجيش غير راض عنها وربما على وشك الانفجار.

قرأ آخرون حديثه على أنه تأكيد لأهميته في أي معادلة للحكم، ولا يعني تصدر البرهان للمشهد حاليا أن دور حميدتي قد انتهى، فلا يزال على رأس قوات الدعم السريع التي تلعب دورا مهما في ضبط البوصلة الأمنية في الشارع خلال تظاهرات لم تتوقف تماما منذ الانقلاب العسكري في الخامس والعشرين من أكتوبر الماضي.

يبدو الفريقان، البرهان وحميدتي، على درجة عالية من التوافق بحكم المصالح المشتركة بينهما، حيث قام الثاني بدور معتبر في تفويت الفرصة على من حاولوا توظيف التباين الظاهر بين أبناء الجيش الحقيقيين وقادته مثل البرهان ورفاقه، وبين من انتسبوا إليه في ظروف حاول فيها نظام الرئيس السابق عمر البشير خلق توازنات عسكرية معينة تمكنه من إحكام القبضة الأمنية على مفاصل السلطة وتوابعها، وتحول دون تدبير مؤامرات خفية ضده.

يعد حميدتي وقوات الدعم السريع من النوع الثاني الذي يوصف في بعض الأدبيات السودانية بـ"الدخلاء على الجيش" لأنهم لم ينخرطوا في صفوفه بصورة نظامية مبكرا، بدءا من الدراسة المعروفة وحتى وضع سقف للترقي والهيراركية العسكرية، وتم تكوين هذه الوحدة المسلحة في ظروف الحرب الأهلية في إقليم دارفور.

سطع نجم حميدتي عند إزاحة نظام البشير وتحول من ميليشياوي إلى قائد منضبط عندما وجد جميع الكرات العسكرية والسياسية تتدحرج بعيدا ففضل الانحياز إلى قوافل الثورة وقفز على موجتها الأولى، وأسهم في توجيه معاول الهدم ضد البشير ونظامه، وهو ما جعله رقما رئيسيا في منظومة المرحلة الانتقالية بالتساوي أو تاليا مباشرة للبرهان، واختير نائبا له في مجلس السيادة السابق.

أفضت أحلام حميدتي الواسعة إلى مناوشات من حين إلى آخر بينه وبين البرهان، وهي الثغرة التي حاولت قوى مدنية الاستفادة منها لمنع تغول الجيش، غير أن تحالف الضرورة بين الرجلين فرض عليهما تفويت الفرصة على تخريب العلاقة بينهما، والتي حتى الآن تعاني من رواسب، حيث عمد كلاهما إلى تكتيل أوراقه في الجيش والشارع ونسج علاقات مع قوى إقليمية ودولية.

تقبل حميدتي تفوق البرهان عليه كرئيس لمجلس السيادة السابق على أمل أن تواتيه فرصة لينقض على الحكم بنعومة، فعندما فقدت الكثير من القوى المدنية جزءا من ثقتها في البرهان تصور حميدتي أنه بديل أكثر جاهزية، وألمح إلى إمكانية التفاهم معه حول ترتيبات المرحلة الانتقالية وما بعدها.

مع كل خلاف بين المكونين المدني والعسكري كان حميدتي يعتقد أنه يصب في صالحه، حتى تضخم معنويا، وحرص على أن يبدو مارشالا عتيدا لمجرد أنه يقبض في يده على عصا ويحاول أن يخطو خطوات العسكريين الكبار أثناء المشي.

يفتقر حميدتي لمجموعة من الخصال الرئيسية تقلل من حظوظه كبديل للبرهان، وتجعله مضطرا ليكون داعما له، لأن الخيارات المتاحة أمامه شبه معدومة، فلم يتخرج في الكلية الحربية التي تعد مصنع العسكريين، ما يجعل الكثير من القادة ينظرون إليه وكل من تدرجوا مثله في القوات المسلحة على أنهم فرز ثان أو صف ثان.

تكفي هذه الإشارة لتوحي بانعدام كفاءته وعدم قدرته على السيطرة على وحدات الجيش المختلفة، فقد يفضي صعوده إلى فتنة في صفوفه السودان في غنى عنها في هذه الأجواء الملتبسة، ويحتاج إلى المزيد من الوقت لاختراق المؤسسة النظامية وتشكيل جبهات قوية موالية له، وهو ما كان البرهان منتبها له وعمل على حصر دوره في قوات الدعم السريع وترك مساحة هامشية خارجها بلا تأثير على القوة الصلبة للجيش.

لن تسعف الصورة الذهنية المنطبعة عن الرجل في الشارع عملية هضمه كوجه بديل للبرهان، فالرجل متهم بفض اعتصام مركز القيادة بعد أشهر قليلة من سقوط البشير بالقوة، ما أدى إلى وقوع ضحايا لا تزال قضيتهم تثير الوجع لدى بعض المدنيين.

حميدتي تقبل تفوق البرهان عليه على أمل أن تواتيه فرصة لينقض على الحكم بنعومة فعندما فقدت الكثير من القوى المدنية جزءا من ثقتها في البرهان تصور حميدتي أنه بديل أكثر جاهزية

ناهيك عن تاريخه القاتم في حرب دارفور التي تجعله غير مرغوب فيه من قبل شريحة واسعة من أبناء الإقليم ودخل في خلافات مع أبناء عمومته ما يقلل من أهميته كرقم على الصعيد القبلي، بجانب أهميته المنخفضة كرقم على الصعيد العسكري.

يضاف إلى هذه العيوب عيب آخر يتعلق باتهامات كبيرة حول تجارته غير المشروعة في الذهب، ويردد سودانيون كلاما مذهلا حولها وصل إلى حد سيطرته على مناجم بكاملها وأسرته بعيدا عن أعين الدولة، وحصد أموال باهظة، وهذه تكفي لعدم الوثوق فيه من شعب تئن شريحة كبيرة فيه من كثافة التدهور الاقتصادي والاجتماعي.

لن تسعفه مؤهلاته العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ليكون بديلا للبرهان، وليس أمامه سوى دعمه بكل ما أوتي من بقايا حنكة ودهاء، فقد ارتبط مصيرهما معا، وأي هزة تحدث للأول ستكون عواقبها وخيمة على الثاني.

من توقعوا أن يصبح الرجل جاهزا ليكون خليفة للبرهان لا يدركون الخطورة الكبيرة، بمعناها السلبي وليس الإيجابي، التي يمثلها على المدنيين والعسكريين، والتي تجعل قائد الجيش الحالي أكثر انضباطا وأقل بطشا وأقدر على التفاهم مع الآخر في الداخل أو الخارج، فإن لم يكن البرهان قائدا فلن يصبح حميدتي القائد الاحتياط.

قد يكون ما وصل إليه حميدتي أقل من تطلعاته وطموحاته وأمنياته الشخصية، لأنه صعد إلى أعلى السلم الذي يمكن أن يصل إليه من في مثل ظروفه، وأي تقدم بعده ربما يؤدي إلى احتراقه، وإذا تمكن من الحفاظ على قيادته لقوات الدعم السريع بلا منغصات سيكون ذكيا لأن وجود هذه القوات في نظر قادة الجيش أمر شاذ.

وفي نظر المدنيين الذين يريدون حكم البلاد ويسعون لتأسيس نظام ديمقراطي مسألة يجب بترها فورا، لأنها تدعم فكرة الجيوش الموازية التي يعمل السودان الجديد على التخلص منها، إذا كيف سيتم إنهاء ظاهرة الحركات المسلحة المتعددة وهناك ما يشبه الميليشيا يقودها رجل محسوب على المؤسسة العسكرية النظامية؟